مجلة
كلية البنات الأزهرية بالعاشر
من رمضان

وصـــف البحتري في ظلال مديحه
دراسة تحليلية

إعداد

د. ياسر السيد أحمد عمارة

كلية الفنون والعلوم الإنسانية – جامعة جازان

العدد العاشر يونيو ٢٠٢٥ م

الترقيم الدولي (٢٦٣٦-٣٦٠٧)

الترقيم الدولي الإلكتروني(٢٦٣٦-٣٦١٥)

رقم الإيداع بدار الكتب (٢٠٢٥/٢٤٣٢٩)

ملخص البحث

وصف البحتري في ظلال مديحه: دراسة تحليلية

شغل الوصف فى شعر البحتري مكانًا بارزًا فهو من أدق ميزاته الفنية، فقد برع فى تصوير المظاهر الطبيعية، واستطاع أن ينقل صورًا رائقة عما يريد وصفه، ومما يسترعي الانتباه أن اشتملت قصائد مدح البحتري لوحات وصفية نقل فيها صورة الحياة حول الممدوح، ومشهد الحضارة وزخرفها فى عهده، فكانت سجلًا وصفيًا دقيقًا لمعالم الترف الذى عايشه البحترى وانبهر به.

وكثيرًا ما كان البحترى يربط بين الوصف والمدح، فمزج مدائحه بأوصاف القصور، والحدائق، والبرك، وغيرها من الأوصاف التى تناولها فى مدائحه ، وربما كان هذا من أثر حبه الشديد للطبيعة وعشقه جمالها، وفرحه بالتغني بها، ويأتي هذا البحث لإبراز هذه الظاهرة في شعر البحتري، وتحليلها والاجتهاد في تقويمها.

وقد جاءت أوصاف البحترى فى سياق مدحه فى معظمها- تتسم بالجدة والواقعية، فقد استقى موضوعاتها مما عاينه وعايشه فى ظلال الخليفة "جعفر المتوكل" وما تأثر به من زخارف الحياة ومباهجها فى عهده، فوصف القصور، والبركة، وغيرها مما لم يكثر وصفه فى الشعر العربى من قبل.

ولكن هل كان البحترى يهرب من واقعه الذى كان يتحايل فيه إلى واقع جمالى عبر هذه الأوصاف هروبًا يغنى فيه للحرية، والإبداع، والجمال؟

هل يمكن أن تكون أوصافه هى أحلامه فى خلق واقع جميل يحتفل فيه الإنسان بالطبيعة ويرتمى فى أحضانها بعيدًا عن صراع المادة، وطغيان الساسة؟

ربما كان البحترى يهرب إلى تلك الأوصاف؛ ليوازى بذلك ما يظن من هرب المتوكل إلى بناء القصور، واستحداث الغرائب؛ ليفرغ طاقاته المكبوتة فى إعادة مجد الدولة العباسية

سياسيًا، والتخلص من طغيان الترك، فاستبدل بناء القصور بهذا البناء السياسى المقهور، ووجه عنايته للبناء؛ ليخلد ذكره عبره أو ليتسلى به عن واقعة المرير.

وربما نقل التضخيم فى المشهد الحضارى الذى كان البحترى يعمد إليه- زيف الواقع المبالغ فيه، فإذا كانت القصور بزخارفها تضم أحيانًا من لا يستحق وليس أهلًا لها، فإن التضخيم فى المشهد الوصفى عنده يعبر عن السطحية، والزيف الذى كان يمر به الزمن آنذاك، وعن لباب أجوف يضمه زخرف ممتوت.

الكلمات المفتاحية: البحتري، الوصف، المديح، ظلال، البنايات، المدن.

Al-Buḥturi's Descriptive Imagery in His Panegyrics: An Analytical Study

Abstract

Descriptive imagery occupies a prominent place in Al-Buḥturi's poetry, standing as one of his most distinctive artistic features. His mastery in portraying natural landscapes enabled him to convey vivid and elegant visual representations of his subjects. Notably, Al-Buḥturi's panegyrics incorporated rich descriptive passages that illustrated the world surrounding his patrons—the civilization, the embellishments, and the opulence of his era—functioning as detailed records of the luxury he witnessed and admired.

Al-Buḥturi often intertwined praise with elaborate descriptions, infusing his eulogies with images of palaces, gardens, pools, and other opulent elements, perhaps reflecting his deep love for nature, his admiration for beauty, and his joy in celebrating it poetically. The present study aims to highlight this phenomenon in Al-Buḥturi's poetry, analyze its significance, and critically assess its artistic implications.

The descriptions in his praise poetry predominantly exhibit originality and realism, drawn from his direct experiences under the rule of Caliph Ja'far al-Mutawakkil and

shaped by the luxurious ornamentation and splendor of his time. His verses captured architectural marvels, decorative pools, and other scenes seldom depicted in classical Arabic poetry.

However, was Al-Buḥturi escaping the constraints of his reality through these idealized depictions—singing of liberty, creativity, and beauty? Could his descriptive passages represent his dreams of crafting an idyllic world where humans rejoice in nature's embrace, detached from material struggles and political oppression?

Perhaps Al-Buḥturi's vivid imagery served as a parallel to Al-Mutawakkil's own retreat into palace-building and extravagant innovations, channeling his suppressed ambitions into architectural grandeur rather than political maneuvering. In doing so, Al-Mutawakkil sought to solidify his legacy, to immortalize his memory and distract himself from the harsh realities of governance.

Moreover, the hyperbolic grandeur evident in Al-Buḥturi's poetic descriptions might reflect an exaggerated historical reality. While palatial embellishments sometimes housed undeserving occupants, the amplified imagery in his poetry may reveal the superficiality and ostentation of that era—an empty facade concealing an underlying void.

Keywords: Al-Buḥturi, Description, Panegyric, Imagery, Architecture, Cities

المقدمة:

الوصف باب أصيل من أبواب الشعر العربي، طرقه معظم الشعراء، وأخرجوا فيه لوحات امتزجت فيها الألوان، وتعددت الهيئات، وكُشِفَت فيه طبائع الأشياء، فوصَفَ الشاعر كلَّ ما وقعت عليه عينَه، وجال بفكره وتأثر به؛ محاولًا أن ينقل من خلال موصوفه مشاعرَه وأحاسيسَه، وأن يفيء عليه من خياله.

وبإمعان النظر في الشِّعر يتضح أن جل فنونه تكاد ترتد إلى فن الوصف على نحو ما. هذا ابن رشيق يقول: " الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه"(١). وهى مقولة صادقة إلى مدى بعيد، فالشاعر يصف في المدح مكارم الرجل وفضائله، وفي النسيب يصف المرأة المحبوبة ومشاعره نحوها، وفي الرثاء وصف لمناقب الميت ومآثره، وفي الهجاء يصف نقائص المهجو وسوءاته، فالوصف بهذا يجمع معظم فنون الشعر.

وقد توفر هذا للبحترى فصار وصَّافًا ماهرًا، وشغل الوصف في شعره مكانًا بارزًا فهو من أدق ميزاته الفنية، فقد برع في تصوير المظاهر الطبيعية، واستطاع أن ينقل صورًا رائقة عما يريد وصفه، صورًا تفيض بالحياة، وتتلاقى فيها الألوان، وامتلك القدرة على أن ينطق كلماته بكل ما يريد التعبير عنه في موصوفاته؛ وبذلك خلدت موصوفاته وبقيت حية في أشعاره، وإن فنيت على أرض الواقع، فقد أحب البحتري الطبيعة حبًّا شديدًا، واحتفل بمظاهرها وآثارها احتفالًا عظيمًا نقل عبرها مشاعره، وسجلها في لوحات فريدة.

وللبحترى في تضاعيف ديوانه شعرٌ وَصَفَ فيه مظاهر الطبيعة من ربيع، وسحب، وأمطار، ورياض، وحيوان، ووصف كذلك القصور والمدن والآثار، والمعارك الحربية، ومما يسترعي الانتباه أن اشتملت قصائد مدح البحتري الخليفةَ المتوكل لوحاتٍ وصفيةً نقل فيها صورة الحياة حول المتوكل، ومشهد الحضارة وزخرفها في عهده، فكانت سجلًا وصفيًّا دقيقًا لمعالم الترف المتوكلي الذى عايشه البحتري وانبهر به.

(١) العمدة، أبو على الحسن بن رشيق، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢، ٢/٢٩٤.

وكثيرًا ما كان البحتري يربط بين الوصف والمدح، فمزج مدائحه للمتوكل بأوصاف قصوره، وحدائقه، وبركه، وغيرها من الأوصاف التى تناولها في مدائحه له، وربما كان هذا من أثر حبه الشديد للطبيعة وعشقه جمالها، وفرحه بالتغني بها، وهو في هذه الفكرة مهتدٍ بتناول عدد من الشعراء قبله وصف الطبيعة في مدائحهم، وإن كان يختلف عنهم في التفاصيل، وإضفاء لمساته الخاصة.

-أسباب اختيار الموضوع:

دعت أسباب عدة لدراسة هذا الموضوع، حيث مثَّل توسع البحتري في وصف الطبيعة خاصة في معرض مدحه المتوكل أمرًا لافتًا للنظر؛ فقد عاين في الحياة حول المتوكل ما لم يره من قبل؛ فأثرت هذه المشاهد في نفسه، وأورت زناد خياله فطفق يصفها ويشيد بها وبانيها. كل ذلك دعا لتتبع هذه الفكرة في ديوان البحتري في محاولة تحليلها، والوقوف على تفاصيلها.

- أهم أسئلة الدراسة:

ماذا وصف البحتري في معرض مديح المتوكل؟

كيف وصف البحتري ما اختار من الطبيعة حول المتوكل؟

هل أضاف هذا الالتحام بين الوصف والمدح شيئًا للوصف؟

- وهكذا يهدف البحث إلى تحديد الموصوفات التي اهتم بها البحتري في معرض مدحه المتوكل، والتحليل الفني لما وصفه، وتبين مظاهر التميز في أوصاف البحتري في سياق مدحه.
- وتتبع الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، الذي يساعد في تحقيق أهدافها.

- الدارسات السابقة:

تعددت الدراسات التي تناولت شعر البحتري وشخصيته من جوانب متعددة، كما تعددت الدراسات التي تناولت امتزاج شعر الطبيعة بأغراض أخرى عند الشعراء، ومن الدراسات التي عرضت قضية مزج الطبيعة بغيرها من الأغراض والموضوعات عند الشعراء:

شعر الطبيعة بين المشارقة والأندلسيين، عرض وتحليل.. ونقد وموازنة[1] لكن فيما وقفت عليه لم تستقل دراسة بالربط بين غرضي الوصف والمديح في شعر البحتري، وستكون الدراسات ذات الصلة بشعر البحتري مراجع أساسية في هذا البحث.

-خطة البحث:

تشتمل خطة البحث على مقدمة وتمهيد وأربعة مطالب.

فأما المقدمة ففيها تعريف بفكرة البحث، وأسبابه، وأهدافه، ومنهجه.

وأما التمهيد فيركز على التعريف الموجز بالوصف لغويًّا واصطلاحيًّا، وأهم ملامحه في العصر العباسي، وأبرز أنواعه وملامح الوصف في شعر البحتري.

وأما المطالب الأربعة فهي:

الأول- وصف بنايات المتوكل: وأبرزها قصور: الجعفري، والصبيح، والبناء الحيري، والدكتان.

والثاني- وصف المدن: وأشهرها: المتوكلية، ودمشق، وبغداد، وسامراء.

والثالث- وصف موكب الخليفة.

والرابع- أثر مزج الشاعر بين الوصف والمديح على وصفه.

ثم خاتمة تليها قائمة بأهم المراجع.

(١) يراجع: شعر الطبيعة بين المشارقة والأندلسيين، عرض وتحليل.. ونقد وموازنة، د. رفعت عبد البر، حيث تناول شعر الطبيعة عند البحتري ٦٥ – ٨٣، ومزج الطبيعة بغيرها من الأغراض والموضوعات ٤٦٥.

التمهيد:

ورد في لسان العرب أن: معنى الوصف يدور حول التحلية، والتجميل، والكشف، والإظهار(١).

وإذا كان التزيين والتجميل من أهم معانى الوصف العامة، فإن الوصف الأدبى ليس كله للتحلية، فالشاعر قد يتناول الشيء القبيح بالوصف، أو يقبح الشيء الجميل لغرضٍ فني يرمى إليه. وبهذا فإن قول الأستاذ أحمد الشايب مثلًا إن "العاطفة الأساسية التى تنشئ الوصف هى الإعجاب والروعة بما يشهده الأديب"(٢) يفهم على أن الروعة والإعجاب هما المثير الغالب وليسا المثير الوحيد بدليل قوله إن الأديب يفسر موصوفه "تفسيرًا خاصًا متأثرًا بمزاجه ووجهة نظره، ويخلع عليه من نفسه تفاؤلها أو تشاؤمها، إكبارها أو ازدراءها"(٣). وبهذا يشمل الوصف الحسن والقبيح.

أما عن حد الوصف من خلال بعض آراء النقاد: فإن قدامة بن جعفر عرفه بأنه "ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات"(٤). ويرى ابن رشيق أنه "إخبار عن حقيقة الشيء"(٥).

وقد حاول بعض الباحثين المحدثين تعريف الوصف بوصفه فنًا أدبيًا له ملامحه التى تميزه عن سائر فنون الشعر الأخرى(٦)، ولعل تعريفاتهم تتقارب جميعها في أن الوصف تصوير

(١) يراجع: لسان العرب، جمال الدين بن منظور، تحقيق عبد الله على الكبير، ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، مادة (و ص ف).

(٢) الأسلوب، أحمد الشايب، ٩٠، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٧.

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٤) نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٧٩، ١١٨.

(٥) العمدة، ٢/٢٩٤.

(٦) يراجع: الوصف فى العصر الجاهلى، عبد العظيم قناوى، ١/٤٣، مطبعة البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٤٩م، وفن الوصف فى مدرسة عبيد الشعر، د. محمد لطفى الصباغ، ٥، المكتب الإسلامى، بيروت، ١٩٨٣، والوصف عند امرىء القيس، نصر الدين فارس، ١٢، ١٣، دار المعارف، حمص، ١٩٨٨م.

المشاهد التى ينفعل بها الشاعر في الكون من حوله، وإبراز أحاسيسه تجاهها بما يظهر حقيقتها، وينم عن وجهة نظر الشاعر الخاصة فيما يرى.

ولما أتى العصر العباسى، وازداد الترف، وعمت الحضارة، ومُلئت الحياة بالزخارف والزينة، وكثرت المناسبات والأعياد، وزاد اختلاط العرب بغيرهم من الأجناس، وافتن الخلفاء والأمراء في تشييد الأبنية العظيمة، تأثر الناس بكل هذا من حولهم "فالحضارة العباسية في جملتها تنزع إلى الحس وهذا ما رأيناه متمثلًا في الحركة الحضارية من قصور، وبرك، وترف، وغناء، ورأينا العباسيين- ونخص الشعراء منهم- قد تعاملوا مع هذه المعطيات الحضارية تعاملًا حسيًا ناشدين المتعة واللذة منها"(١). ووسط هذا الزخم الحضارى كثر وصف الحدائق والبرك وسائر مشاهد الحضارة العباسية، بالإضافة إلى موضوعات الوصف القديمة في العصرين الجاهلى والأموى التى استمرت تلقى ظلالها على موضوع الوصف في العصر العباسى.

وصنف فريق من الباحثين الوصف أنواعا: فمنهم من قسمه حسب نوع الموصوف إلى: حسى، وخيالى. الأول يصور المحسوسات والأشياء المنظورة، والآخر ينظر إلى ما وراء المحسوسات ويبدع منها صورًا مجردة أثارها المحسوس، ويعتمد الشاعر فيه على الخيال المحض.(٢) ويرى د. عمر فروخ أن الوصف الحسى أبلغ وأكثر صعوبة من الوصف الخيالى، والأمر بخلاف ذلك؛ لأن مفردات الوصف الحسى أمام الحس والإدراك، أما الوصف الخيالى فتنشأ صوره من الفكر العبقرى، فالأول صورته موجودة سهلة المنال، والآخر تعتمد صورته على الخيال والإبداع وإن استلهمت المحسوس، ولكنها ارتفعت به عن صورته العادية.

وهناك من قسم الوصف باعتبار النزعة النفسية إلى: وصف نقلى، ووصف وجدانى، الأول يجسد الظاهرة كما تبدو دون أن يصهرها بنفسه وينطقها بأسرارها، والآخر يختلط

(١) الأدب العربى فى العصر العباسى، د. طه عبد الرحيم عبد البر، ٧٨، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٨٧.

(٢) منهم د. عمر فروخ في: تاريخ الأدب العربى، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤، ٨١/١، وأنيس المقدسي في: أمراء الشعر العربى في العصر العباسي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٩ ٢٥٠- ٢٥٢.

بالظاهرة المحسوسة، ويفيض عليها من ذاته ما يكشف مشاعره حتى تصير الظاهرة كرمز وهو وصف مرتبط بقلق الإنسان في هذا الكون[١]. وكلاهما أيضًا يرتدان إلى الوصف الحسى والخيالى.

وكان البحتري ذا حس مرهف يمتلك ناصية اللغة ويتمتع بمقدرة فذة على التصوير منحت وصفه التميز كما يرى بعض الباحثين[٢]. ويعلل د.محمد أبو الأنوار سر براعته في الوصف فيقول: "لعل البيئة الجميلة التى نشأ فيها البحتري في "منبج"، ثم استجابة طبعه لتذوق الجمال والافتتان به هما اللذان أهلاه ليكون شاعر الوصف على نحو متميز بين شعراء العربية، ولعل إلحاح طبعه الفنى في أن يكون حرًا طليقًا بعيدًا عن عبودية المدح، ومرارة الضعف في الغزل، وهياج الطبع في الفخر والهجاء، وأنين النفس في العتاب والرثاء، ولعل الرغبة الكامنة في عشق الحرية والتغنى بها ولها، في أعماق الفنان والإنسان مكانها الأصيل ونبعها الثر، هى التى جعلت البحتري يحس ذاته الإنسانية وكيانه الفنى عندما يركب جواد الوصف"[٣].

وللبيئة –حقًا– أثرها في تكوين شخصية المرء وتحديد اتجاهاته، كما أنها تمده برافدها خاصة في الوصف، وهو أكثر الفنون اتصالًا بالطبيعة، فإذا انفتحت عين الشاعر على الجمال وكان ذا سجية تنفعل بالجمال، فإنه يبدع في الوصف.

(١) يراجع: فن الوصف وتطوره فى الشعر العربى، إيليا حاوى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٨٢، ١١، ١٢.

(٢) منهم: د. صالح اليظي، يراجع: البحتري بين ناقديه: قديما وحديثا، د. صالح اليظي، بدون ناشر ولا تاريخ ، ٧٨.

(٣) الشعر العباسى: تطوره وقيمه الفنية، د. محمد أبو الأنوار، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧، ٣٤٣، ٣٤٤.

المطلب الأول: وصف بنايات المتوكل:

وقد وصف البحتري في معرض مدح المتوكل البنايات التي استحدثها، وكان للمتوكل عناية كبيرة بتشييد القصور، والبرك، والحدائق، والسفن، كما ابتنى حير الحيوان. ويقال: إن النفقات لم تبلغ في عصر من العصور ما بلغته أيام المتوكل. فقد أكثر من بناء القصور خاصة، وكان يتأنق في بنائها تأنقًا شديدًا، ويحدث فيها من الغرائب ما لم يكن لأحد من قبله.(١)

وكانت هذه البنايات التى افتن فيها المتوكل وجعلها ملء العين والأذن مصدرًا ثرًّا للوصف عند البحتري، ومجالًا فسيحًا لإبداعه الفني فعرض أوصافها ودقائقها، فقد كان يرى هذه البنايات عن قرب، وهو شاعر الخليفة ونديمه الذى لا يكاد يفارقه، وهو شاعر يعرف للجمال قدره أينما كان في ساكن أو متحرك، فالتقط بعدسته الفنية ملامح الحسن في هذه البنايات، وحولها من صور حجرية لا نبض فيها إلى صور شعرية تموج بالحياة والحركة.

- قصر الجعفري:

ها هو ذا يصف قصر "الجعفري" ويبدأ لوحته بكلمة عامة عن حسن هذا القصر ويقرنها بمدح المتوكل، يقول(٢):

قــدْ تمَّ حســنُ "الجعفــريّ" ولم يكــن لِيَــــتمّ إلا بالخليفـــةِ "جعفـــر"

فالقصر رائع البناء، تام الحسن وما ذاك إلا لأن المتوكل شيده وأقام به، ثم أخذ في وصف هيئة القصر ومكانه، فقال(٣):

(١) يراجع: مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت ، ١٩٢/٤.

(٢) ديوان البحتري ، حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة ، ١٠٤٠/٢.

(٣) الديوان، نفسه.

مَلِـــكٌ تَبَـــوَّأَ خـــيرَ دارِ إقامـــةٍ ... في خـــير مَبْـــدًى لـــلأنام ومَحْضَـــر
في رأسِ مُشْـــرِفةٍ حصـــاها لؤلـــؤٌ ... وترابهـــا مِســـكٌ يُشـــابُ بعنـــبرٍ
مُخضـــرّةٌ، والغيـــثُ لـــيسَ بســـاكبٍ ... ومضـــيئةٌ، والليـــلُ لـــيس بمقمـــر
ظهـــرت بمنخَـــرِقِ الشـــمال، وجـــاورت ... ظُلَـــلَ الغمـــامِ الصَّـــيِّبِ المُســـتغزِرِ

فقصر "الجعفرى" خير دار ينتجعها إنسان في بادية أو حاضرة، ثم يخلع عليه البحتري جانبًا من أوصاف الجنة بما يرفع قدره، ويبالغ في نعيمه المقيم فيجعل حصاه اللؤلؤ، وترابه المسك الممزوج بالعنبر تزينه الرياض النضرة، والحدائق الغناء، وتنتشر الخضرة فيه فيبدو المنظر مبهجًا حول القصر من كل اتجاه مما يبعث على السعادة والسرور.

وإذا كان العربي قديما يستضيء في ليله بالقمر، ويعتمد على المطر في إنبات الزرع، فقد تغيرت الحياة في العصر العباسي وخاصة في قصور الخلافة فلا تنتظر مطرًا في رى أرضها، ولا تحتاج إلى قمر ليضيء ليلها، فالليل تتلألأ فيه الأنوار وتضفي الضياء على كل المكان. وهذا القصر يستقبل رياح الشمال التى تبرد الهواء، وتلطف الحرارة، فالجو هناك ربيعي جميل، وقد علا بناء القصر حتى كاد يقارب السحب في السماء.

ثم يعود الشاعر لمزج الوصف بالمدح، متابعًا وصف القصر فيجعل سر جماله اختيار الخليفة للمكان وتقديره الموفق، وليس بعد اختياره اختيار أو تقديره تقدير، يقول[1]:

تقريـــرُ لطفِـــكَ واختيـــارُك أَغْنَيـــا ... عـــن كـــلِّ مختـــارٍ لهـــا ومقـــدَّرِ
وسَـــخاءُ نفسِـــكَ بالـــذي بَخِلَـــتْ بِـــهِ ... أيـــدي الملـــوكِ مـــن الـــتِّلادِ الأوْفَـــرِ
وعُلُـــوُّ همَّتِـــكَ الـــتي دَلَّـــتْ علـــى ... صـــغر الكبـــير وقلـــة المســـتكثر

(١) الديوان، ٢/١٠٤٠، ١٠٤١.

فرفعْـــتَ بنيـــانًا كـــأنَّ زُهـــاءَه أعـلامُ رضـوى أو شـواهقُ صَـنْبَرِ

أزرى علـــى هِمَـــمِ المُلـــوكِ وغـــضَّ مـــن بُنْيَانِ "كِسْرَى" في الزَّمَانِ و"قَيْصَرِ"

عَـــالٍ علـــى لَحْـــظِ العُيـــونِ كأنمـــا ينظـرن منـه إلى بيـاضِ المشـترِى

تمزج صورة البحتري التي رسمها للقصر بين وصف ومديح متداخلين، فيربط مثلًا بين علو همة الممدوح وعلو القصر، ويبدو أن البحتري كان مأخوذًا بعلو هذا القصر الشاهق، وارتفاعه المهيب فجعله طورًا يضاهي الجبال في علوه وضخامة بنائه، وطورًا يجعله بعيدًا عن مرمى الأنظار، ولا تدرك قمته الأبصار إذ تصوره يجاور برج المشترى في السماء.

– وإذا كان للقصر نهر عظيم يجرى بجواره فإنه يكون أبلغ في الجمال والروعة؛ إذ تتهيأ لساكنه كل سبل المتعة "وليس أجمل من قصور تجري من تحتها الأنهار. ويبدو أن القصر كان مبنيًّا على جزء مائل في الشاطيء، والتف البناء حول هذا الميل، فبدا للرائي كأن النهر هو فناء القصر ورحبته، وظهر الشيء الطبعي في صورة المستحدث المصنوع"[١]. وهذا ما يراه بعض الباحثين في قول البحتري[٢]:

بانِيـــهِ بَانِي المَكْرُمَـــاتِ، وربُّـــهُ ربُّ الأخاشِـبِ والصَّـفا والمَشْـعَرِ

وتَســـيرُ دجلـــةُ تحتَـــه فَفِنـــاؤه مـــن لُجَّـــةٍ غَمْـــرٍ وروضٍ أخضـــرِ

(١) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى، د. طه أبو كريشة، مكتبة الملك فيصل الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٣، ٩٧.

(٢) الديوان، ١٠٤١/٢، ١٠٤٢.

شـــجرٌ تُلاعبـــه الـــرياحُ، فتنثـــني أعطافُـــه في ســـائحٍ متفجِّـــرِ

وليس بلازم أن يكون الأمر على نحو ما قيل، بل إن الخيال الشعري يكفي ليرى النهر يسير من تحت القصر، وإن كان يمده بالماء ويتصل به اتصالًا شديدًا وتلاعب أمواجه جنباته، ويحول ماؤه فناء القصر إلى حديقة غناء تمتليء بأصناف الأشجار، والورود، ومختلف ألوان النبات.

ويصف البحتري كذلك الرياح وهى تحرك الأشجار فتميل برفق نحو النهر لتلمس صفحة الماء. إن الطبيعة تبدو سعيدة بهذا القصر العظيم؛ إذ تتآزر مظاهرها لتمد الساكن بكل أسباب الحياة الرغدة السعيدة، فتهبه عمرًا جديدًا يحياه في القصر، وبهذا دعا البحتري للمتوكل أن يهنأ بحياته في هذه الدار الميمونة فيقول(١):

واســـتأنِفِ العمـــرَ الجديـــدَ ببهجـــةِ الـــ قصـــرِ الجديـــدِ وحُســـنِهِ المتخـــيَّرِ
قـــد جئتَـــه فنزلـــتَ أيمـــنَ منـــزِلٍ ورأيتَـــه فرأيْـــتَ أحســـنَ مَنظَـــرِ

والبحتري حين يصف روعة القصور يضفي عليها من ذوب نفسه، وفيض إحساسه بالجمال ما يجعلها فردًا في الحسن، وعظمة البناء.

(١) الديوان، ١٠٤٢/٢.

-الجعفري والصبيح:

ومن هذا أيضًا وصفه قصري "الصبيح" و"الجعفري" في لوحة أخرى يقول(١):

أصـــبَحَتْ بهجـــةُ النعـــيمِ وأمْسَـــتْ بـــينَ قصـــرِ "الصَّـــبيحِ" و"الجعفـــري"
في البنـــاءِ العجيـــبِ والمنـــزلِ الآ نِـــسِ، والمنظـــرِ الجميـــلِ البَهِـــيّ
ورياضٍ تصـــبو النفـــوسُ إليهـــا وتَحْيـــا بـــوَرْدِهِنَّ الجَـــنِيّ
دارُ مُلْـــكٍ مختـــارةٌ لإمـــامٍ أحـــرَزَتْ كَفُّـــهُ تـــراثَ النـــبيّ

لقد كان القصران في روعة البناء وعظمته ما جعل البحتري يبالغ في تصويرهما ويرى النعيم التام يدور في فلكهما ليل نهار، فبناؤهما "العجيب"- كما تلقيه الكلمة من فرط دهشة الشاعر، وتعبر عن جمال لا نظير له- يروق الناظر، ويأنس الساكن، فالرياض النضرة تلتف حوله تأسر الروح بوردها الزاهي الذي يعبق المكان أريجًا ينعش الأنفاس، ويحيي القلوب.

ويختم المشهد بأن الخليفة أحسن اختيار الإقامة بهما، ويمدحه بأنه أحق الناس بالخلافة؛ لأنه وريث النبي الشرعي، وهكذا وصف البحتري قصر الخلافة الجعفري منفردًا تارةً، ووصفه مع غيره من القصور تارةً أخرى.

وقد أخذ أحد الباحثين على البحتري حين وصف قصر الجعفرى أنه لم يصور ما بداخل القصر من فراش ومتاع ولم يصف جدرانه وحوائطه وأعمدته، بل اكتفى بتصوير ارتفاعه وتحديد مكانه، ووصف شرفاته وما يحيط به من أشجار(٢).

وقد يكون البحتري عمد إلى ترك وصف القصر من الداخل؛ رغبة منه في إضفاء أجواء قدسية على قصر الخلافة، وجعل كل ما يدور بداخله غامضًا ومهابًا، ولعله فعل ذلك أيضًا

(١) الديوان، ٤/٢٤٥١، ٢٤٥٢، الصبيح والجعفري: من قصور المتوكل فى سامراء- تصبو: تميل- الجَنِيّ: الذى جُنِيَ من ساعته.

(٢) يراجع: الطبيعة فى شعر البحتري، د.عبد الهادي عبد النبي علي، ١٢٠، مكتب مصر، المنصورة، ١٩٨٨.

ليثير النفوس على التساؤل عن روعة القصر من الداخل، وكأنه يقول إذا كان هذا هو جمال الهيكل الخارجى فما بالنا بما يحويه القصر من أغراض ومتاع ومقتنيات.

إن عظمة البنايات التى رآها البحتري جعلته ينبهر بها، فأخذ يرسم لها صورًا بديعة على غير مثال، إن الحضارة العباسية بمباهجها وزينتها التى لم يألفها الشاعر أورت زناد فكره، ونبهت مكامن خياله فأبدع هذه الصور الفنية الفريدة التى خلدته شاعر وصف ماهرًا "لقد رشف البحتري أفاويق السعادة، ونهل من الرفاهية والنعيم في ظلال المتوكل، وأسعفه فنه فصور تلك النعمة الغامرة تصويرًا ما زال يعبق بأريج النعيم"(١). فقال يصف البركة في قصيدة أخرى(٢):

يا مَنْ رأى البركةَ الحسناءَ رؤيَتُها ... والآنِساتِ إذا لاحَتْ مَغانِيها
بِحَسْبِها أنّها مِنْ فضلِ رُتبَتِها ... تُعَدُّ واحدةً، والبحرُ ثانيها
ما بالُ دجلةَ كالغَيْرَى تنافِسُها ... في الحُسْنِ طَورًا، وأطوارًا تُباهِيها
أمَا رأَتْ كالِئَ الإسلامِ يكلأُها ... مِنْ أنْ تُعابَ، وبانِي المَجْدِ يبنيها
لا يَبْلُغُ السَّمَكُ المحصورُ غايَتَها ... لِبُعدِ ما بينَ قاصِيها ودانِيها
تَغْنَى بَسَاتِينُها القصوى برؤيتها ... عن السحائبِ مُنْحَلاّ عَزالِيها
وزادَها زِينةً مِنْ بَعدِ زينَتِها ... أنَّ اسمَه حينَ يُدعَى من أساميها

بنداء عام لكل من تتأتى منه الرؤية يبدأ البحتري أبياته بما ينقل شعوره المبتهج إزاء ما يرى، فالبركة التى يراها لا مثيل لها، وتعد عجيبة من العجائب، إنها من الفخامة والعظمة بما يجعلها في خيال الشاعر تفضل البحور، وتساميها منزلة، ثم يأتى بهذه الصورة البديعة التى تصف بالكلمات مكانة البركة في الحسن، إنها أثارت الغيرة في نهر دجلة فأنشأ ينافسها في

(١) البحتري بين ناقديه، ٩٩.
(٢) الديوان، ٤/٢٤١٦: ٢٤٢٠.

الجمال، وكيف تتأتى المنافسة أو المفاخرة؟ والبركة قد اكتسبت رفعة المنزلة وشرف البناء من الخليفة المتوكل الذى يشيد صروح المجد ويرفعها. وبركة تغار دجلة منها بهذه الصورة التي رسمها البحتري لا بد أن تكون قد بلغت من السعة والعمق ما لا يدرك مداه؛ لذلك فإن السمك المحصور بداخلها لا ينال آخرها. ثم يتحدث عن أثر البركة على ما حولها من المكان؛ إذ حولته إلى رياض زاهرة تستغني في ريها عن كل غيث ماطرٍ، فماء البركة العذب الرقراق يتدفق في غزارة وقوة، وينساب عليها يكسوها بفنون النبت. ثم ينتهي المشهد بمدح الخليفة جعفر المتوكل، فمما زاد البركة حسنًا على حسنها أنها تنسب إليه وتتسمى باسمه.

إن البحتري في سائر أبياته السابقة " قدير على تصوير ما يرى، تصويرًا ينقل إليك الصورة كاملة؛ لتتأثر بها كما تأثر ثم لا يقف عند حدود هذا التصوير، بل يصف لك إحساسه ومشاعره إزاء ما يصف، فهو يشرك عينه وقلبه في رسم ما يريد، ولا تكاد تخطو خطوة واحدة... إلا رأيت صورة للعين وإحساسات للنفس"(١).

فهو حريص على أن يخلع مشاعره على ما يصفه، وأن يطبعه بطابع نفسه السعيدة، فيلون صوره بالبهجة، ويبعث فيها الحياة، ويضعها حيث يريد من الجلال والعظمة، إنها مقدرة الشاعر الفنان الذى لا يقف عند حدود ما يصف بل يصغى لإحساس قلبه الذى يمنح وصفه خصوصية، ويطبعه بطابع مميز، يفوق فيه الموصوف شعرًا على سائر فنون الوصف بما للكلمة من طاقة فنية، وأبعاد معنوية تحمل نفسية الشاعر وخصوصية تشكيله.

وهكذا وصف البحتري عظمة القصور التى أنشأها المتوكل في صور توحي بمقدار ما بلغته هذه القصور من إحكام الصنعة، ودقة البناء، وروعة الزخرف، بل إنه يبالغ في وصف ما يراه بما يجاوز مقدار جماله الحقيقى ويصنع منه خيالًا أو حلمًا. وهذه هي لغة الفن التى لا تشترط تطابقًا مع الواقع.

---

(١) البحترى، ٥٥، ٥٦.

ولعل للبحتري عذرًا في جنوحه نحو المبالغة في عرض صور البنايات؛ فقد بهرته الحياة العباسية بترفها الباذخ وهو الأعرابي الذى فارق "مبنج" ببساطة عيشها إلى عاصمة الخلافة بنعيمها المفرط، وزينتها المتناهية، وهذا ما جعله يقول في وصف هذه القصور(١):

حُلَلٌ مِن منازِلِ المُلْكِ كالأَنْـ ... ـجُمِ يَلْمَعْنَ في سوادِ الظلامِ
مُفْحَماتٌ تُعْيِي الصِّفَاتِ فما تد ... رَكُ إلا بالظنِّ والإيهامِ
فكأنا نُحِسُّها في الأمانى ... أو نراها في طارِقِ الأحلامِ

فهو يجعلها نجوما تضيء في ظلام الليل؛ مما يدل على رفعتها وعلو بنائها، وما امتلأت به من صنوف الترف والنعيم، وهذه القصور لا تحوطها الصفة ومن يرها تستبد به الدهشة، فيظن أنها خيال لراءٍ، أو حلم لنائم "وتلك هى النعمة التى يرف فيها الشاعر، والتي تبلغ درجة الأماني والأحلام"(٢).

ورأى بعض الباحثين أن مبالغة البحتري في عرض الموصوف حتى يعظم في نفس السامع أو القاريء كانت بعض طريقته في تحريك أوصافه.(٣)

ولعل ميل البحتري إلى التضخيم فيما يراه حتى يصل به لحدود الخيال بل يفوقه حينًا- جعلت الأستاذ إيليا حاوي يقول: "كانت نفس البحتري مرتبطة بعقدة ما إزاء القصور والمقاصير، إنه كان يرتحل إليها من عالمه وكأنه يرتحل إلى عالم آخر تتغير عليه الأحجام والأرقام والمقاييس"(٤). فخياله الخصب المبدع يجاوز ما يرى على أرض الواقع، ويجعل له واقعًا فنيًا آخر يعكس نفسيته المندهشة السعيدة المأخوذة بكل ما تراه من مفاجآت الحضارة العباسية التى

(١) الديوان، ٢٠٠٢/٣.
(٢) البحتري بين ناقديه، ٩٩.
(٣) يراجع: شعر الطبيعة فى الأدب العربى، د.سيد نوفل، ١٨٤، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية.
(٤) مقدمة ديوان البحترى، ٤٢/١.

عايشها في ظلال المتوكل؛ لذلك علا القصر بوصفه حتى جاور السحاب، وفاقت البركة البحور وصارت من خوارق العادات، وتقارب القصران حتى تعانقا. إنه فعل الخيال والنفس تآزرا على التصوير الخارق.

- البناء الحيري:

وأبدع المتوكل بناءً على غرار ملوك الفرس، جمع فيه بعض الحيوانات وسمي بالبناء الحيرى، ووصفه ووصف حيوانه في بعض شعره، ومنه:(١)

وطاعَةُ الوَحْشِ إذْ جاءتْكَ مِنْ خَرِقٍ ... أحوى، وأُدْمَانَةٍ كحْلٍ مآقيها
كالكاعِبِ الرُّودِ يَخْفى في تَرَائِبِها ... رَدْعُ العبيرِ ويبدو في تراقيها
أَلْفانِ جاءت على قدْرٍ مُسارِعَةً ... إلى قَبُول الذى حاوَلْتَهُ فيها
إنْ سِرْتَ سارَتْ وإنْ وقَّفْتَها وقفت ... صُوَرًا إليكَ بألحاظٍ تُوَاليها
يَرِعْنَ منك إلى وجهٍ يَرَيْنَ له ... جَلالةً يُكْثِر التسبيحَ رَائيها
حتّى قَطَعْتَ بها القاطولَ وافترقت ... بالحَيْرِ في عَرْصَةٍ فِيحٍ نواحيها
فنهرُ نَيْزَكَ وِرْدٌ من مَوَارِدُها ... وساحةُ التَلِّ مَغنًى من مغانيها
لولا الذى عَرَفْتَهُ فيك يومئذ ... لما أطاعك وَسْطَ البِيدِ عاصيها
فضلان حُزْتَهُما دونَ الملوك، ولم ... تُظْهِرْ بِنيلِهِمَا كبرًا ولايتها

والشاعر هنا يمزج الوصف بالمدح، ويصف بعض الحيوانات التى جمعها المتوكل في حيره، وكان عددها ألفين جاءت مستجيبة مطيعة للخليفة تأتمر بأمره، وأخضعها له هذا الجلال

(١) الديوان، ٢٤١٢/٤، ٢٤١٣. الخرق: ولد الظبية الضعيف القوائم- الأدمانة: الظبية البيضاء يعلوها جدد فيها غبرة- الرود: أصلها الرؤد وهى الشابة الحسنة- الترائب: عظام الصدر- الردع: أثر الطيب فى الجسد- صور: مائلات- يرعن إلى: يرجعن- العرصة: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء.

والصلاح الذى يبدو على وجهه حتى جمعها في الحير وتفرقت في أنحائه الشاسعة التى يرويها نهر "نيزك" ويمدها بالماء.

وتلتف الرياض حول الحير وتعطيه منظرًا جميلًا، ثم يقول: لولا مهابة الخليفة ومنعته لما استجابت له هذه الوحوش الأبية النافرة، وهو فضل ناله المتوكل كما نال الخلافة ولم يفخر بأحدهما أو يتكبر. إن الشاعر هنا يريد أن "يهبه السورة التى لسليمان على النبوءة وتطويع الوحش والطير"(١).

وهذا يعبر عن دهشة البحتري بهذا المشهد الذى لم يعهده من قبل في استئناس الوحوش، وترويضها، وجمعها في حظائر.

- الدّكّتان:

ومما وصفه البحتري أيضًا من بنايات المتوكل: "الدكتان" يقول(٢):

وَدَكَّتَـــيْنِ كمِثْـــلِ الثِّـــعْرَيَيْنِ غَـــدَتْ إحـــداهُمَا بإزَا الأُخـــرى تُســـامِيها

ويقول في موطن آخر في وصفهما(٣):

وأرى الـــــدَّكَّتَيْنِ بينهمـــــا أَفْـــــ واف روض كالوشـــــى في ألوانـــــهْ
في ضروبٍ منْ حُسْنِ نَرْجِسِه الغَـــــــ ضِّ ومِـــنْ آسِـــهِ، ومـــن زَعْفَرَانِـــهْ

فالدكتان في علوهما ووضوحهما كنجمين ساطعين في السماء، تقابل إحداهما الأخرى، وبينهما أنواع الزهر المختلف بألوانه الزاهية، الذي يزين المكان ويبهج الناظر.

(١) الديوان، ١/١٢٩.
(٢) الديوان، ٤/٢٤٢٠، الشعريان: من أسطع الكواكب وأقربها إلى الأرض.
(٣) الديوان، ٤/٢١٧٠.

إن وصف البحتري للدكتين لا يرقى لأوصافه الأخرى في الخيال، ولعل مظاهر الحضارة التي فجأته كانت تصرفه أحيانًا عن التمادي في الوصف، فيبهت عن وصف ما يريد، فتراوحت أوصافه بين التقريرية المباشرة، وبين التصوير المبدع، وجاءت بعض أوصافه قاصرة عن بلوغ الخيال الذى وصلته في لوحات أخرى.

وهكذا وصف البحتري بنايات المتوكل التى شغلته بعظمها وفخامتها، وقد بدا مأخوذًا بها يقف عند دقائقها حينًا، ويصف ما حولها أحيانًا أخرى، ويصف المظاهر الطبيعية التى تتفاعل معها والتى قرنها البحتري بأوصافه؛ ليجعل كل ما في الكون يعانق هذه الأبنية ويظهر جمالها وزينتها.

المطلب الثاني: وصف المدن

وإذا كان البحتري فيما سبق من وصف بنايات المتوكل، بدت عاطفته الصادقة –غالبًا– هي التي تنطق بالأبيات، وتدبج الصور، فإن له أبياتًا أخرى اضطربت فيها عاطفته، وصار فيها موزعًا بين الصدق والزيف أو بالأحرى الفتور. وهذا يبدو بوضوح عند وصفه بعض المدن، وأهم المدن التي وصفها في معرض مدح المتوكل: المتوكلية، ودمشق، وبغداد، وسامراء.

ولم يكن الشاعر القديم معنيًا بمثل هذا الوصف للمدن؛ لأنهم كانوا يعيشون في الخيام، ويقيمون في الصحراء، فلما قامت المدن الحضارية وانتقل إليها كثير من العرب، وعاينوا ما فيها من مظاهر البذخ والترف وخاصة في العصر العباسي– أخذوا في وصفها؛ "ومن هنا يمكن القول: إن وصف المدن كان استجابة للنقلة الحضارية من البداوة إلى الحضارة، ومن الخيام والصحراء إلى المدن والقصور"(١).

ومن هذا وصف البحتري "للمتوكلية" وهي مدينة ابتناها المتوكل قرب سامراء، وبنى بها قصورًا كبيرة، منها قصر الجعفري(٢).

يقول البحتري واصفًا إياها في لمحة خاطفة؛ إذ أعجبه حسنها التام، وقصورها الشاهقة التي تبدو كواكب تنير للساري ظلمة الليل(٣):

أرى "المتوكليَّـــــة" قـــــد تعالـــــت محاسِـــــنُها وأُكْمِلَـــــتِ التَّمامـــــا
قصـــــورٌ كالكواكـــــبِ لامعـــــاتٌ يَكَـــدْنَ يُضِـــئنَ للســـاري الظلامـــا

ويقول فيها أيضًا(٤):

(١) الأثر الحضارى فى شعر البحترى، أسامة لطفى الشوربجى، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة المنصورة، ١٩٩٦ ، ٣٨.

(٢) معجم البلدان، شهاب الدين ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، باب الميم والتاء وما يليهما، ٣٨٢/٧.

(٣) الديوان، ٢٠٠٧/٣.

يَهْنِيـــــكَ في المتوكليـــــة أنهـــــا حَسُـنَ المَصـيفُ بهـا، وطـاب المَرْبَـعُ
فيحـــاءُ مُشـــرقةٌ يـــرقُّ نســـيمُها مِيـــثٌ تُدَرِّجُـــهُ الـــرياحُ وأجْـــرَعُ
وفســـيحةُ الأكنـــافِ ضـــاعَفَ حُســـنَها بَـــرٌّ لهـــا مُفْضًـــى وبحـــرٌ مُـــتْرَعُ

فالعيش يطيب في المتوكلية ربيعًا ويحلو صيفًا، فنسيمها عليل لين. وهى مدينة واسعة رحبة الجنبات تحوطها الأرض الشاسعة، وترويها المياه الفياضة، وبها القصور العظيمة التى تملأ العين، وتبهج رؤيتها النفس، وبهذا توافرت لها كل أسباب الحياة الرغدة الهنيئة، وقد أعجب البحتري بتلك المدينة وأضفي عليها كل معاني الفخامة والنعمة؛ مما يوحي بعاطفته الصادقة في وصفها. ومثل هذه المشاعر الحية النابضة تصاحبه حين يصف "دمشق" فيقول(١):

إنَّ دمشـــــقًا أصـــــبحتْ جنـــــةً مُخضـــرَّةَ الـــروضِ عَـــذَاةَ الـــبِرَاقْ
هواؤهـــا الفَضْـــفَاضُ غـــضُّ النـــدى وماؤهـــا السَّلسَـــالُ عـــذبُ المـــذاق
ناظـــــرةٌ نحـــــوك، مشـــــتاقةٌ منـــكَ إلى القُـــرب ووشْـــكِ الـــتلاق
وكيـــــف لا تُؤْثِرُهـــــا بالهـــــوى وصَـــيْفُها مثـــلُ شـــتاءِ العـــراق

ومن خلال الأبيات تبدو دمشق بنظر الشاعر الشامي المولد والمنشأ والهوى "جنة" بكل ما تحمله الكلمة من أفياء النعيم، والخير، فرياضها خضراء، وأرضها خصبة، وجوها نسيمي ندي، وماؤها سلسبيل حلو المذاق، وهى تتلهف لرؤية الخليفة وزيارته، والخليفة يفضل المقام بها، ويرتاح لوجوده فيها؛ لتمتعها بمثل هذا المناخ الرائع.

=

(٤) الديوان، ١٣١١/٢، ١٣١٢، المربع: الموضع الذى يقام فيه فى فصل الربيع- ميث: أرض لينة سهلة من غير رمل- الأجرع: رملة مستوية لا تنبت شيئا- المترع: الملآن.

(١) الديوان، ١٥١٠/٣، ١٥١١، العذاة: الأرض الطيبة التربة- البراق: واحدتها برقة وهي الأرض الغليظة المختلطة بالحجارة والرمل.

وهنا يظهر تعصب البحتري لبلاده "الشام" التى تحمل في نفسه كل الذكريات الطيبة، وهو متى احتشد لوصفها تداعى لخياله أجمل الأوصاف؛ لينعت بها طبيعتها الساحرة. وهو ما يظهر في وصف آخر لدمشق يقول فيه(١):

أمَّـــا دمشـــق فقـــد أبـــدت محاسِـــنَها ... وقـــد وفَّى لـــك مُطْرِيهـــا بمـــا وعـــدا
إذا أردْتَ مـــلأتَ العـــينِ مـــن بلـــدٍ ... مُسْتَحْسَـــنٍ وزمـــانٍ يشـــبه البَلَـــدا
يُمسِـــى الســـحابُ علـــى أجبالهـــا فِرَقًـــا ... ويصـــبح النبـــتُ في صـــحرائها بَـــدَدَا
فلســـتَ تبصـــرُ إلا واكفًـــا خضِـــلًا ... أو يانعًـــا خَضِـــرًا، أو طـــائرًا غَـــرِدا
كأنمـــا القـــيظُ ولَّى بعـــد جيئتـــه ... أو الربيـــعُ دنا مـــن بعـــدِ مـــا بَعُـــدَا

ترسم الطبيعة هنا لوحة بتفاصيلها "السحاب، الجبال، النبت، الصحراء، اليانع، الطائر". هذا عن المكان "ملأت العين من بلد مستحسن". فجمالها يخطف الأبصار، أما الزمان فهو ربيع دائم لا يكاد ينقطع "وزمان يشبه البلدا". فحسن دمشق قد أخذ بلب الشاعر، وطغى حسن المكان على الزمان فصار يشبهه.

"والبحتري في الأبيات المتقدمة إنما يبلغنا بمكانة الطبيعة في نفسه وأثرها فيها، والطبيعة المصورة طبيعة مشرقة وجب أن تثير في النفوس أرق المشاعر وأكثرها إشراقًا... فالشاعر في هذه الأبيات لا يصور الطبيعة وإنما يوحي بموقفه منها وبما أثارته في نفسه من مشاعر الحبور والإشراق"(٢). فهو شديد الاحتفال بالطبيعة في صورتها العامة. فكيف حاله حين يصف منشأه ومحل ميلاده؛ إن السعادة تحتوشه من كل صوب حين ذلك، فدمشق وطبيعتها لم

(١) الديوان: ٢/٧١٠.

(٢) الصورة الفنية فى شعر الطائيين بين الانفعال والحس، د.وحيد صبحى كبابة، ٤٩، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩.

يتغيرا، لكنه استطاع أن يخلع عليهما من مشاعره أثوابًا من الفرحة والبهجة لونت الطبيعة بحالة الشاعر النفسية.

والبحتري في وصف دمشق يمنحها الصفات الطيبة من طبيعة البلد الجميلة، بينما حين يصف "بغداد" فإنه يمنحها الجمال لوجود الخليفة بها. يقول واصفًا "بغداد" إذ عاد إليها المتوكل(١):

وقـــدْ لَبِسَـــت بغـــدادُ أحســـنَ زِيّهـــا ... لإقبالـــــه، واستشـــــرَفَتْ لِعُدُولِـــــه
ويَثنِيـــــهِ عنهـــــا شـــــوقُهُ ونِزاعُـــــهُ ... إلى عَـــرْضِ صـــحنِ"الجعفرىّ" وطُولِـــه
إلى منـــــزلٍ فيـــــه أحبَّـــــاؤه الأُلَى ... لقـــاؤهُمُ أقصـــى مُنَـــاهُ وسُـــولِه
مَحَـــلٌّ يَطيـــبُ العـــيشَ رِقَّـــةُ ليلِـــه ... وبَـــرْدُ ضُـــحاهُ واعتـــدالُ أَصِـــيلِه
دَعـاهُ الهـوى مـن "سُـر مـن راءَ" فانكفـا ... إليهـــا انكفـــاءَ اللَّيـــثِ تِلْقـــاءَ غَيْلِـــه
علـــى أنهـــا قـــد كـــانَ بُـــدِّلَ طِيبُهـــا ... ورُحِّـــلَ عنهـــا أُنْسُـــهُا برحيلـــه

يصف الشاعر هنا "بغداد" وقد رجع إليها الخليفة قافلًا من دمشق، مجبرًا على العودة تحت تأثير الترك، وقد تهيأت البلد لقدومه، لكن شوق الخليفة لآله بقصر الجعفري جعله يعرض عن بغداد إلى سامراء. هذا البلد الذى يحلو به المقام؛ فجوها لطيف وليلها آنس، وقد عاد إليها جمالها بعودة الخليفة. ويكاد المرء يستبطن وراء تشبيهه رجوع الخليفة لها بعودة الأسد لعرينه، تعريضًا بمن أجبروه على الرجوع، وأن المتوكل سيعود متمكنًا من زمام الأمور متسيدًا عليهم كما يتسيد الليث في أجمته. فالأبيات تعبر عن وضع سياسى ألمح إليه البحتري إلماحة مواربة.

(١) الديوان، ٣/١٦٣٠، ١٦٣١، النزاع: الاشتياق، الذهاب إليه- السول: السؤل، الحاجة والمطلب.

ولعل البحتري يمنح "سر من رأى" الجمال لوجود الخليفة بها؛ مما يشي بفتور عاطفته في هذا الوصف الذى لم يكن ليمنحه لها لولا الخليفة الذى حل بها فيقول(١):

زَهَتْ سُرَّ من را بالخليفةِ "جعفرٍ" وعاد إليها حُسنُها وجَمالُها
صفا جوُّها لمَّا أتاها، وكُشِّفَتْ ضَبَابَتُها عنها، وهبَّت شَمَالُها
وكانت قد اغبرَّتْ رُباها، وأَظلمتْ جوانبُ قُطْرَيْها، وبانَ اختلالُها

إن "سامراء" حسنت برجوع الخليفة لها، فاعتدل جوها، وترقرق نسيمها، وقد كانت معتمة مضطربة في غيابه؛ فهى لا تحيا إلا بوجود الخليفة.

إن الشاعر ليس معجبًا "بسامراء" والأبيات تنقل مشاعره المتبرمة بها، فكأنه يذمها من خلال الأبيات، وهذا يظهر من خلال العبارات المستخدمة "صفا جوُّها" وكأنه في الأصل كدر، "كشفت ضبابها" فضبابها كثيف لا ينقشع، وهو ما توحى به كلمة "كشفت"، والتأكيد بقد في "اغبرت، وأظلمت" وكأن هذه طبيعة البلد ويعزز هذا المعنى قوله "بان اختلالها" فالاختلال أصيل فيها ولكن وجود الخليفة يخفيه. فهل الشاعر معجب بالشام أكثر من العراق "لأن طبيعة الأولى أجمل" كما يرى أحد الباحثين؟(٢).

إن الشام أجمل في طبيعتها الساحرة من العراق، لكن الأمر ليس كذلك فحسب، فالبحتري مشدود بنوع من العصبية للشام حيث "منبج"، وملاعب الطفولة، ومعاهد الصبا، فقد اختفت العصبية القبلية في العصر العباسى، لتحل محلها العصبية القطرية أو البلدية، ولا شك في أن البحتري متأثر في ذلك بالفرس، لأنهم قليلو العناية بالعصبية القبلية، شديدو العناية بالعصبية البلدية(٣).

---

(١) الديوان، ١٦٢٦/٣.

(٢) شعر الطبيعة فى الأدب العربى، د.سيد نوفل، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٨٤.

(٣) يراجع: ضحى الإسلام، أحمد أمين، ٣٠/١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة العاشرة.

وتبدو هذه العصبية بصورة واضحة تُظهر حنين البحترى، وحبه الأصيل لبلاد "الشام" حين يعقد لونًا من المناظرة بين الشام والعراق، وينتصر فيها للشام؛ فإذا هو يقول[1]:

نَصَبٌ إلى طِيبِ العراقِ وحُسنها ... ويَمْنَعُ منها قيظُها وحَرورُها
هي الأرضُ نَهْوَاها إذا طاب فَصْلُها ... ونَهْرُبُ منها حين يَحْمَى هَجيرُها
عشيقتُنا الأولى، وخُلَّتُنا التي ... تُحِبُّ، وإنْ أضحتْ دمشقُ تُغيرُها
عَنِيتُ بشرقِ الأرضِ قِدْمًا وغربِها ... أُجَوِّبُ في آفاقها وأَسِيرُها
فلم أرَ مثلَ الشامِ دارَ إقامةٍ ... لِراحٍ تُغادِيها وكأسٍ تُديرُها
مِصَحَّةُ أبدانٍ، ونُزهَةُ أعيُنٍ ... ولَهْوُ نُفوسٍ دائمٌ وسُرورُها
مُقدَّسَةٌ جادَ الربيعُ بلادَها ... ففي كل دارٍ روضةٌ وغَديرُها

فالشاعر يهوى العراق ويحبها فهي البلد التي تفتحت له فيها خزائن المال، وارتقى فيها منازل المجد في ظلال الخلافة، لكنه يرتحل عنها حين تحمى الحرارة، ويستعر الهجير، وينتجع دمشق بطبيعتها الخلابة، ورياضها الغناء المنتشرة، ومائها العذب الوفير، وجوها الربيعي الرقيق، وأنسها الدائم، والشاعر إذ يقرر ذلك فإنما خبرة شاعر رحالة قد جوب الآفاق.

ويقف بعض الباحثين إزاء وصف البحتري للشام والعراق، ويرى أن أبياته فيهما يبدو عليها الزيف، والافتعال، وأن رأيه رأي الخليفة، فإذا عزم المتوكل على اتخاذ دمشق عاصمة مدحها وذم العراق، فإذا عاد الخليفة إلى العراق أطراها ومدح العودة[2].

وهذا المأخذ يتلاشى بالنظر إلى عاطفة البحتري الصادقة في نقل مشاعره. فهو لم يخادع نفسه حين وصف هذه البلاد، لأنه بحقيقة الأمر لا يحب طبيعة "العراق" وكان سعيدًا برحيل الخليفة عنها واتخاذه "دمشق" عاصمة؛ ولذلك فإنه لما عاد إلى "العراق"، عبر الشاعر عن هذه

(١) الديوان، ٢/٩٤٣، ٩٤٤، صب إليه: كلف به.

(٢) يراجع: حركة التجديد فى الشعر العباسى، د. محمد عبد العزيز الموافى، مطبعة التقدم، القاهرة ، ٢٦١.

العودة بكلمات تنم عن عاطفة فاترة خافتة تبرز نفسية شاعر يرى الأتراك يتلاعبون بأمر الخلافة ويضيقون الخناق على الخليفة؛ ولذلك فإنه حين امتدح العراق مدحها لأجل وجود الخليفة بها- كما سبق عرضه- أما مدحه للشام فلأنها بلده التي يحبها. ولعله قال أبياتًا يمدح فيها العراق لما عاد إليها المتوكل لونًا من التسرية عن الخليفة، ولمحًا خفيًّا ينم عن عدم رضاه عن مجريات الأمور في الدولة.

المطلب الثالث:وصف موكب الخليفة

ولم تكن الأبنية التي أنشأها المتوكل والمدن التي ارتادها وحدها التي شغلت أوصاف البحتري في معرض مديح المتوكل، بل إن له أوصافًا أخرى جلّى فيها بعض ما رآه وعايشه في ظلال الحياة العباسية ومباهجها، ومن ذلك وصفه موكب الخليفة وقت خروجه لصلاة العيد، فيقول(١):

فـــانْعَمْ بيـــومِ الفِطْـــرِ عَيْنًـــا، إنـــه ... يـــومٌ أغـــر مـــن الزمـــانِ مُشَـــهَّر
أظْهَـــرْتَ عِـــزَّ المُلْـــكِ فيـــه بجَحْفَـــلٍ ... لَجِـــبٍ يُحـــاطُ الـــدينُ فيـــه ويُنْصَـــر
خِلْنـــا الجبـــالَ تســـير فيـــه وقـــد غَـــدَتْ ... عُـــددًا يَســـيرُ بهـــا العَديـــدُ الأكثـــر
فالخيـــلُ تَصْـــهَلُ، والفـــوارسُ تَـــدَّعى ... والبِـــيضُ تلمـــعُ، والأَسِـــنَّةُ تَزْهَـــر
والأرضُ خاشـــــعةٌ تميـــــد بثِقْلِهـــــا ... والجـــوُّ مُعتكِـــرُ الجوانـــبِ أغـــبَرُ

في صبيحة يوم الفطر، هذا اليوم الميمون المبارك يخرج المتوكل خليفة المسلمين محاطًا بجيشه العرمرم الذي يدافع عن الدين، ويحمي البلاد، وقد بلغ عظم هذا الجيش حدًا يجعل الذي يراه يخيل إليه أنه جبال تسير بها الفرسان محملة بالعدة والعتاد. وتبدو مظاهر الاحتفال في الخيل التي يرتفع صهيلها، والفرسان الذين يتباهون، والسيوف والرماح التى تتلألأ ببريقها الأخاذ. والكل محتشد لحضور هذا الاحتفال الرائع تغشاهم البهجة ويعمهم السرور، وقد ناءت الأرض بحملها وتكدر جوها من حركة هذا الموكب المهيب، بما يدل على عظمة التجمع والاحتشاد.

وحيث ينتهى الموقف الآن وسط هذا الغبار الكثيف يظهر الخليفة بنور وجهه، وبهاء طلعته، تعلوه الجلالة فتنكشف ظلمة الجو، وينجلي الغبار، يقول الشاعر(٢):

---

(١) الديوان، ١٠٧١/٢، ١٠٧٢. اللجب: ذو الصياح والجلبة- تدعى: تعتز بأنسابها- تزهر: تلمع.

(٢) الديوان، ١٠٧٢/٢. العثير: الغبار- يُومَا: يومأ، مخففة الهمزة؛ أى يشار.

حـــتى طلعْـــتَ بنـــورِ وجهِـــكَ فـــانْجَلَى ذاكَ الـــدُّجَى، وانجـــابَ ذاك العِثْـــيَرُ
وافـــتَنَّ فيـــكَ النـــاظرون، فإصـــبَعٌ يُومَـــا إليـــكَ بهـــا، وعـــينٌ تَنْظُـــر
يَجِـــدونَ رؤيَتَـــكَ الـــتى فـــازوا بهـــا مـــن أنعُـــمِ الله الـــتى لا تُكْفَـــرُ
ذَكَـــروا بطَلْعَتِـــكَ النَّـــبِيَّ فهلَّلـــوا لَمَّـــا طلعْـــتَ مـــن الصـــفوفِ وكـــبَّروا

يصور الشاعر سعادة الناس وفرحتهم برؤية الخليفة: فالأصابع تشير إليه، والعيون تحدق به وتتفرسه، والجميع يهلل ويكبر من اللهفة والبِشْر، إذ مَنّ الله عليهم برؤية المتوكل الذى يذكرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهكذا استغل البحتري مشهد الغبار الكثيف وتجمع الناس؛ لإظهار جمال الخليفة وجلاله.

إن الوصف هنا يجمع كل مظاهر العزة والفخامة، ويبعث في النفس السرور، ويلتقط صورة لوجه من أوجه الاحتفالات في عهد المتوكل وما كانت عليه من عظمة وجلال: فالناس محتشدون، والخليفة في موكبه العظيم من جيشه الكبير يتحرك بفرسانه، وخيوله، وعتاده؛ إنها لوحة تمتلئ فخرًا وابتسامًا.

وقد أبدت د.نعمات فؤاد إعجابها بهذه الأبيات بقولها: "ليس في غزله كله في رأيي ما يرقى إلى أبياته في المتوكل، أو حتى يشرئب إلى هذه الصورة الجميلة القوية الحركة الكثيرة الألوان... حركة في الطبيعة وحركة في النفس... ليس في غزله ما يشايئها في الشكل أو في درجة الفن أو تأثيرها في النفوس... لقد مضى المتوكل ولكنك ما تكاد تقرأ الأبيات حتى تراه في موكبه اللجب... هذا هو الغزل الحقيقى أو الحب النابع من القلب، ولا أحسب عربيًا يسمع هذه الأبيات في أى عصر من العصور إلا وتمتلئ نفسه زهوًا وحماسة يرتفع بها صدره كلما صعد في الأبيات"(١).

(١) المرأة فى شعر البحترى، د. نعمات فؤاد، دار المعارف، القاهرة ، ٤٧: ٤٩.

ومع التحفظ على قولها "ليس في غزله كله ما يرقى إلى أبياته" فإن البحتري أجاد وصف موكب الخليفة وصفًا حيًّا تنتشر فيه الحركة، ويصطبغ بالألوان الزاهية، وتكاد مفردات اللوحة تسير بالموكب الذي يجلله النور وتغشاه العظمة من كل مكان ويستولي على نفس القارئ؛ ولذا رآه بعض الباحثين وصفًا بديعيًّا ينم عن خيال خصب(١).

(١) يراجع: فى رياض الشعر العربى، د. عمر فاروق الطباع، دار القلم، بيروت، ١٩٩٢، ١٤٠.

المطلب الرابع:

أثر مزج الشاعر بين الوصف والمديح على القصيدة

تنبض أوصاف البحتري بالحياة وتموج بالحركة، وتعبر عن صلة حميمة بالكون والطبيعة مكنت الشاعر من عرض مشاعره وأحاسيسه؛ فقد كان يرى الأشياء رؤية خاصة تمتزج بعاطفته، وجاء وصفه وقد انعكست عليه كل آثار الحضارة العباسية، وكل مظاهر الترف والنعيم الذي اشتهرت به الحياة في عهد المتوكل، فصور مباهج الطبيعة التي طالما شغف بها شغفًا عظيمًا، وأثرى بهذه اللوحات الوصفية مدائحه المتوكل، وكشف عن مقدرته الفنية التي جعلت محقق ديوانه يقول: إنه لو لم يكن شاعرًا لكان أحد مشاهير هذا العصر في فن التصوير(١). كما أن للبحتري في بعض أوصافه السابقة روحًا قصصية فكأنه في بعضها يروي حكاية، أو يقص موقفًا وهذا ما منحها مذاقًا خاصًا، وبث فيها حياة وحركة.

وهذا الوصف الحضاري الذي تتسم مشاهده بالجدة والواقعية حيث استقاه البحتري من حقيقة معايشته لصوره- أعجب النقاد قدامى ومحدثين، وشهدوا له بالروعة، فقد روى غير واحد عن عبد الله بن المعتز أنه قال: "لو لم يكن للبحترى إلا قصيدته السينية في وصف إيوان كسرى فليس للعرب مثلها، وقصيدته في وصف البركة...، وصفة المراكب في البحر لكان أشعر الناس في زمانه(٢)، وقال عنه ياقوت الحموي: "أجود شعره ما كان في الأوصاف"(٣) ، ومن المحدثين يقول بطرس البستاني: "والوصف هو الذى رفع منزلة البحتري وأحله في الطبقة الأولى"(٤).

---

(١) يراجع: مقدمة ديوان البحترى، ١٤/١.

(٢) ديوان المعانى، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى، تحقيق الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد محمود الشنقيطى، مكتبة القدسى، القاهرة ، ٢١٨/١، والمثل السائر، فى أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق د/ أحمد الحوفى، ود/ بدوى طبانه، دار نهضة مصر، القاهرة ، ٢٨٤، ٣١٥.

(٣) معجم الأدباء، شهاب الدين ياقوت الحموى، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠، ٢٤٩/١٩.

(٤) أدباء العرب فى الأعصر العباسية، بطرس البستانى، ٢٢٤/٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٩م.

أما د.مصطفى الشكعة فيرى أن "البحتري شاعر فريد الوصف جيده، ولعل شاعرًا مشرقيًا لم يصل إلى مستوى البحتري حين وصف مظاهر الحضارة ومباهجها وكل ما يتصل بها ولو كان جزءًا من التاريخ"(١). ود.سيد نوفل يقول: "والحق أن البحتري قد تناول شعر الطبيعة لعصره وما قبله فجلاه في ثوب فاتن، وأضفى عليه من روح الشاعر فيضًا لا تحجبه الصبغة"(٢).

فالوصف من أكثر الفنون التى أبرزت شاعرية البحتري، ورهافة حسه؛ فكاد الجميع يتفق على روعة الوصف عنده وقدرته على الإحاطة بجوانب الموصوف، وكثيرا ما جاءت أوصافه مقترنة بمدح المتوكل مما جعل بعضهم يرى أن البحتري اتخذ من وصف القصور وسيلة لاستدرار إعجاب ممدوحيه، وإرضاء لنزعة الكبرياء في نفوسهم بتجسيد معالم الجلال التي ينطوي عليها ملكهم(٣). وهو قريب مما رآه د.حسين الحاج حسين حيث رأى أن البحتري "كان يعرف في نفس المتوكل ميلًا شديدًا إلى التأنق والزهو، فراح يمدحه.... وأخذ يضخم المشهد العمرانى بكل ما أوتي من خيال مصور"(٤).

ولكن هل جنى المدح على الفن الوصفي عند البحتري كما يرى د.عبد الله التطاوى؟(٥). وهل كان المزج بين المدح وما يريد الشاعر وصفه- على طرافة هذا الاتجاه- ضارًا للوصف أكثر من نفعه للمدح كما يرى د.عبد العزيز موافى(٦).

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي، د.مصطفى الشكعة، ٧٣٠، دار العلم للملايين، بيروت.

(٢) شعر الطبيعة فى الأدب العربي، ١٨٣.

(٣) يراجع: فى رياض الشعر العربى، ١٣٦.

(٤) أعلام فى العصر العباسى، د. حسين الحاج حسين، المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٩٨٥، ٢٢٥.

(٥) يراجع: قضايا الفن فى قصيدة المدح العباسية، د. عبد الله التطاوى، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨١ ، ٤١٢.

(٦) يراجع: حركة التجديد فى الشعر العباسى، ٢٧٥.

صحيح أن البحتري وصف ما رآه من الترف والنعيم في عصر المتوكل من خلال القصيدة المدحية، لكن هذا لا يعني بالضرورة أنه سخرها في خدمة الممدوح، إذ يمكن فهم الأمر على نحو آخر، فلولا المتوكل ما تمتعت عين البحتري برؤية تلك المشاهد الحضارية التى قام بوصفها، ولولاه ما عايش عن قرب هذا الزخرف الماثل في المدن والقصور، فلا ينكر عليه أن يمزج بين المدح والوصف في مدحه المتوكل، فهو صاحب الأيادي عليه وهو أيضًا صاحب هذه الروائع المشيدة، والشاعر منبهر بالبناء وبصاحب البناء. وليس معنى مجيء الوصف في سياق المدح، أن الأخير جنى على الأول.

فقول الشعر لا يولد إلا من إحساس عميق بضرورة التعبير عن صورة معينة بطريقة خاصة، وهو قول لا يأتي بغتة وإنما يولد في سياق ظرف نفسي ومادي يوجه إبداع الشاعر وأسلوب عرضه.

والقصيدة الواحدة منذ العصر الجاهلى ترد فيها الفنون المختلفة دون أن يحكم أحد من النقاد بجناية أحدها على الآخر. فالبحتري مأخوذ بما يراه، ودهشته لا تنفصل عن سعادة نفسه بإقامته في ظل المتوكل ومنادمته له؛ لذا فإن أوصافه وإن جاءت مقرونة بالمدح من هذا المنطلق، ينبغي أن تقيم من خلال قيمتها الفنية وجودة صورها من دون أن يحط من قيمتها ورودها في سياق مدحي، والنقاد السابقون عندما أعجبوا بوصف البركة وغيرها من أوصاف البحتري أعجبوا بها لروعتها الوصفية في ذاتها مع إدراكهم أنها جاءت في سياق مدحي.

وكما سبق فالمتوكل هو الذي مكن البحتري من معايشة هذا النعيم، والتمتع بتلك الرفاهية، فلا غرابة أن يمدحه ويصف تلك المجالي الحضارية التي ما كان سيراها، ويرفل في مباهجها لولاه.

ومن ثم بدا الخلط واضحًا في رأي د.عبد الله التطاوي حين قال إن "المدح قد جنى على الفن الوصفي عند البحترى، ولكنه أفاده أيضًا حين فتح أمامه تلك الأبواب التى نفذ منها إلى الطبيعة محاولًا تصوير وقعها الخاص على نفسه وعلى من حوله"(١).

إذ كيف يجني المدح على الوصف ثم يفيده؟ لذلك يقول في موطن آخر "ويظل للبحتري فضل الاهتمام بوصف الطبيعة في المدح قارنًا مدائحه بأوصاف القصور وحدائقها وصور الطبيعة التي تبهج خواطرهم ولا تنال من قدرة القصيدة بل ترفع من شأنها فنًا وأسلوبًا في كثير من الأحيان"(٢).

إن الأمر الذي ينظر إليه في رؤية القصيدة هو مدى جودتها الفنية وطريقتها في عرض أفكار الشاعر، وبلوغها درجة فنية عالية في نقل ما يريده، وهذا هو المعول عليه في النظر للشعر.

(١) قضايا الفن فى قصيدة المدح العباسية، ٤١٢.

(٢) السابق،٤١٣.

الخاتمة:

جاءت أوصاف البحتري في سياق مدحه في معظمها- تتسم بالجدة والواقعية، فقد استقى موضوعاتها مما عاينه وعايشه في ظلال الخليفة "جعفر المتوكل" وما تأثر به من زخارف الحياة ومباهجها في عهده، فوصف القصور، والبركة، وغيرها مما لم يكثر وصفه في الشعر العربي من قبل.

ولكن هل كان البحتري يهرب من واقعه الذي كان يتحايل فيه إلى واقع جمالي عبر هذه الأوصاف هروبًا يغني فيه للحرية، والإبداع، والجمال؟

هل يمكن أن تكون أوصافه هي أحلامه في خلق واقع جميل يحتفل فيه الإنسان بالطبيعة ويرتمي في أحضانها بعيدًا عن صراع المادة، وطغيان الساسة؟

ربما كان البحتري يهرب إلى تلك الأوصاف؛ ليوازي بذلك ما يظن من هرب المتوكل إلى بناء القصور، واستحداث الغرائب؛ ليفرغ طاقاته المكبوتة في إعادة مجد الدولة العباسية سياسيًا، والتخلص من طغيان الترك، فاستبدل بناء القصور بهذا البناء السياسي المقهور، ووجه عنايته للبناء؛ ليخلد ذكره عبره أو ليتسلى به عن واقعة المرير.

وربما نقل التضخيم في المشهد الحضاري الذي كان البحتري يعمد إليه- زيف الواقع المبالغ فيه، فإذا كانت القصور بزخارفها تضم أحيانًا من لا يستحق وليس أهلًا لها، فإن التضخيم في المشهد الوصفي عنده يعبر عن السطحية، والزيف، وعن لباب أجوف يضمه زخرف ممقوت.

أهم المصادر والمراجع:

- الأثر الحضارى في شعر البحترى، أسامة لطفي الشوربجي، رسالة ماجستير مخطوطة في كلية الآداب، جامعة المنصورة، ١٩٩٦ .
- الأدب العربى في العصر العباسي، د. طه عبد الرحيم عبد البر، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٨٧.
- أدباء العرب في الأعصر العباسية، بطرس البستانى، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٩م.
- الأسلوب، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٧.
- أعلام في العصر العباسي، د. حسين الحاج حسين، المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٩٨٥.
- أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٩.
- البحتري بين ناقديه: قديما وحديثا، د. صالح اليظي، بدون ناشر ولا تاريخ.
- البحتري، د. أحمد أحمد بدوي، سلسلة نوابغ الفكر العربي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة .
- تاريخ الأدب العربي، د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤ .
- حركة التجديد في الشعر العباسي، د. محمد عبد العزيز الموافي، مطبعة التقدم، القاهرة.
- الخيال الشعرى في شعر الوصف عند البحتري، د. طه أبو كريشة، مكتبة الملك فيصل الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٣ .
- ديوان المعاني، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد محمود الشنقيطي، مكتبة القدسي، القاهرة.

- ديوان البحتري ، حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة.
- شعر الطبيعة في الأدب العربي، د.سيد نوفل، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية.
- الشعر العباسي تطوره وقيمه الفنية، د. محمد أبو الأنوار، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧ .
- الشعر والشعراء في العصر العباسي، د.مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت.
- الصورة الفنية في شعر الطائيين بين الانفعال والحس، د.وحيد صبحي كبابة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩.
- ضحى الإسلام، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة العاشرة.
- الطبيعة في شعر البحتري، د.عبد الهادي عبد النبي علي، مكتب مصر، المنصورة، ١٩٨٨.
- العمدة، أبو علي الحسن بن رشيق، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢ .
- فن الوصف في مدرسة عبيد الشعر، د. محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣.
- فن الوصف وتطوره في الشعر العربى، إيليا حاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢ .
- في رياض الشعر العربى، د. عمر فاروق الطباع، دار القلم، بيروت، ١٩٩٢.
- قضايا الفن في قصيدة المدح العباسية، د. عبد الله التطاوي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨١ .

- لسان العرب، جمال الدين بن منظور، تحقيق: عبد الله على الكبير، ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩ .
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق د. أحمد الحوفى، ود. بدوى طبانه، دار نهضة مصر، القاهرة.
- المرأة في شعر البحتري، د. نعمات فؤاد، دار المعارف، القاهرة .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت .
- معجم الأدباء، شهاب الدين ياقوت الحموي، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠ .
- معجم البلدان، شهاب الدين ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.
- نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٩.
- الوصف عند امرئ القيس، نصر الدين فارس، دار المعارف، حمص، ١٩٨٨م.
- الوصف في العصر الجاهلى، عبد العظيم قناوى، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٤٩م.

فهرس المحتوى

الملخص ٦٤١
المقدمة ٦٤٦
التمهيد ٦٤٩
المطلب الأول- وصف بنايات المتوكل: وأبرزها قصور: الجعفري، والصبيح، والبناء الحيري، والدكتان..... ٦٥٢
المطلب الثاني- وصف المدن: وأشهرها: المتوكلية، ودمشق، وبغداد، وسامراء.. ٦٦٣
المطلب الثالث- وصف موكب الخليفة. ٦٧٠
المطلب الرابع- أثر مزج الشاعر بين الوصف والمديح على وصفه..... ٦٧٣
الخاتمة ٦٧٧
فهرس المراجع والمصادر ٦٧٨
فهرس المحتوى ٦٨١